

فصل في ذكر جبل هنتاة

وعملنا على الصعود إلى الجبل المطل عليها، والجراح المرفرف على دراجها مقتصرين على حدود هنتاة، عنصر الدعوة، وأولياء الدولة المرينية، وحلفاء الطاعة المخصوصين برعي الجوار، والاستماتة من دون الحرمة، وشد عروة الوفاء، وسد الخلة، واستحقاق لشُفوف على غيرهم والمزية، إذ كان ذلك أقوى بواعث الوجهة، وأخلص مقاصد الرحلة.

وقدمت بين يدي وصولي إلى مراكش، المخاطبة إلى عميد تلك البقعة، وشاه تلك الرقعة، صدر هذه الحدود القصوى، المتميز بالرجاحة والرأي والسياسة، المتفق فيه على إفاضة العدل، وكف اليد، والتجافي عن مال الجباية، والمستأثر بحمد الجمهور من الرعية، وحب أولي العفاف والخيرية، إلى الثُّبُل الذي لا يطيش ثُبُلُه، والإدراك الذي لا يُفْلُ حُدُه، والدهاء الذي لا يُسَبِّر غوره، والمعروف الذي لا يتجاوز محالَّ الضرورة حكمته، عامر بن محمد بن علي:

تقول لي الأظعان والشوق في الحشا
له الحكم يمضي بين ناه وأمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارعاً
فخيم قرير العين في دار عامر
وَزُرُّ تربها المعصوم إن مزارها
هو الحجّ يمضي نحوه كل ضامر
سنلقى بمثوى عامر بن محمد
تغور الأمانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهة
ولله ما تلقاه من يَمَن طائر
وتستعمل الأمثال في الدهر منكما
بخير مزور أو بأغبط زائر

لم يكن همي، أبقاك الله، مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمن كله ربيع، والدهر مطيع سميع، إلا زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل أمنه بين النوم والأحفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه البداية. فلما حُمَّ الواقع "وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع" وأصبحت ديار الأندلس وهي البلاقع، وحسنت من استدعائك إياي المواقع، قوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً، والتمست الإذن حتى لا ترى في قبلة السدادة تحريفاً، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند العزم مقدوح، والله يحقق السؤل، ويسهل بمثوى الأمثال المثول، ويهيئ من قبيل هنتاة القبول بفضله.

فأكرم الوفادة، وأطراً بين يدي الإمارة، واستدعي من محل سكناه بمراكش إلى دار الكرامة، وشرك في الطعام نبهاء الدولة وعلية الخاصة. وأطرف من استجلاء منزله بقرة العين، انفساح خطة، والتفاف شجرة، وجرية ماء، واستبحار بركة. واستكثر من كل طرفة، ونقل من جلسة إلى جلسة، وحرص على تميم البر بكل حيلة.

وفي يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم، توجهنا إلى الجبل في كنف أصحابه تحت إغراء بره، وفي مركب قرة عينه، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل، ونساير الجهة، ونشاهد الآثار، ونتخطى المعاهد، وننشق النسيم الليل القريب العهد بمادة الثلج وعنصر البرد، ولما بلغنا درج الجبل، وانتحينا طريقه من السفح، وهي تركب ضفة الوادي الملتف بعادي شجر الحور والطرفاء وشجر الخلاف والدردار، وأمعنا "و"، وتسمو عن جانبها الجبال الشم، والشعبات التي تزلُّ بها العُصم، وتفضي دروبه إلى أقوار فسيحة، وأجواء رحبية، يكتنفها العمران، ويموج بها السنبُل.

ولما كدنا أن نختم عدد نُوبِ المجاز، ونأتي على عنته، تلقننا الخليل راکضة أمام يعسوب المتبوع عبد العزيز بن محمد الهنتاني، صنوه وحافظ سيقته، وقسيمه في قعساء عزته، الحسن الوجه، الراجح الوقار، النبيه المركب، الملوكي البزة، الظاهر الحياء، المحكم الوخط إثارةً للحشمة، واستكثراراً من مواد التجلة على الفناء والجدة. فرحب وأسهل، وارتاح واغتبط، وألطف وقدم. وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه، المستندة إلى سفح الطود، وقد هياً ببعض السهل الموطأ للاعتماد بين يدينا من المضارب كل سامي العماد، بعيد الطنب، سوِّي القامة، مقدر التفاصيل، بديع النقش والصنعة، ظاهر الجدة، مصون عن البذلة، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع، ولحف الحرر ومساند الوشي، وانطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجبة والأبهاء المنضدة. ولم يكد يقر القرار، ولا تتزع الحفاف، حتى غمر من الطعام البحر، وطما الموج، ووقع البهت، وأمل الطحو، ما بين قصاع الشيزي أفعمها الثرد، وهيل بها السمن، وتراكت عليها لسمان الحملان الأعجاز، وأخونة تنوء بالعصبة أولى القوة، غاصة من الآنية بالمذهب والمحكم، مَهْدِيَّة كل مختلف الشكل، لذيد الطعام، مَهان فيه عزيز التابل، محترم عنده سيده الأحامرة الثلاثة إلى السمك الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيار، ثم تتلوها صحون نحاسية تشتمل على طعام خاص من الطير والكباب واللقاق، يقع منها بعد الفراغ إمام ذلك الرئيس في نفر من خاصته بما يدل على اختصاص ذلك بنفسه. ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مُسْتَبْطَن للباب البُر، ومعالج بالقلو، وأطباق مُدَّخِر الفاكهة وأوعية العود المحكم الخلق، المشتملة على مُجَاج الشهد. وقد قام السماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهذبتهم الدربة، فخفَّت منهم الحركة وسكنت الأصوات، وانشمرت الأذيال. وقد اعتمت من الآنية

النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة، فاضل أجناسه في الطيب والأحكام والفخامة. ولم يكد يفرغ من الأكل إلا وقد جن الليل، وتلاحق من الطعام السيل، مريباً على ما تقدم بالروية وانفساح زمن الاحتفال، وتفنن أصناف الحلواء، وتعدّى عسلها إلى السكر، وكان السمر والمجالسة في كنف لألاء الشموع الضحاكة فوق المنصات النحاسية، والأتوار اللاطونية فاستعيد الكثير من تاريخ القطر وسيره، وخبر لجأ السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن إلى قنتة، والتحرم بمنبع وعز جواره على تفته هيص جناحه، وتبرى أثيره عميد العساكر منه، وإطراق العيون عند نجدته، وتصامم المسامع عند هاء استغاثته، وقد خذل النصير، وزلت الأقدام، وساءت الظنون، وما كان من إجابة هذا التذب عبد العزيز لندائه، والتبجح بمنعة جبله، ووفور عدته، وأصيل وفائه، واستصحابه إلى مقر أهله ومفزع ولده، ودفتعه عنه بنفسه وقبيله، ورضاه بتغير ما تناله الأيدي بالسهل من نعمته، فعادت قاعاً صنفصفاً بمراى من عينه، فعاثت فيها ألسنة النار بأرض البوار عن طيب من نفسه حتى لكادت الكرة أن تتاح، والدولة أن تدول، والملك أن يشب، والعثرة أن يقال لها لعاً. لولا طارق الأجل الذي فصل الخطه وأصمت الدعوة، ورفع المنازعة. فتوفاه الله بين السحر والنحر، والأنف والعين، واستأمن من بعده لمن كان خلص إليه من خدامه، وانحدر طوعاً بين يدي سريره، وأبقى محل وفاته مرفهاً عن الابتذال بالسكنى، مفترشاً بالحصباء، مقصوداً بالابتهاال والدعاء فتخلفها أي منقبة شمء، ومآثرة بلغت ذوائها أعنان السماء، وبدأ على الخلق بيضاء.

ومن الغد كان التوجه إلى ذلك المحل المبارك، فاقتحمنا وعراً نزل فيه الذر، ولا يسلكه مع الحلم الطيف. وتسنمنا شعاباً تعجز عنها العصم، وتجاوزنا مهاوي مدت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة، فتقطع عمّن وراءها الآمال، إلى أن أفضينا ولم نكد إلى المحل المقصود وهي دار قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى جنسها... ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر، متقابلة الأشكال بيوتها، لاطية السقف غير مهذبة الخشب، بأعلاها غرف من جنسها، يدور بداخلها برطال مستعمل على أرجل متخذة من اللبن، والحجر ملبس بالطين، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء، وقد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى وكحل العيون المرهى، إذ كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة، لم تعرف الخبائث، ولا آثرت الملاذ، مُعْنياً في برّ والديه مصرفاً في انتساخ الذكر الحكيم بمحي يديه، محافظاً على الصلاة قيوماً عليها بالليل، كثير الصدقة والصوم، مجالساً للعلماء، مستكشفاً أحوال الرعايا، حانياً على الضعفاء، معملاً في سبيل الله بيض الطبا، صابراً على اللأواء، محتسباً في البلوى، مستشعراً شعار التقوى، ألحقه الله بالرفيق الأعلى. وبإزائه مصراع باب غسلت عليه جنته الزكية، لا

تتمالك العين أن تنتشر سلوك دموعها، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة بكظمها، لما عضَّ ذلك الملك الحلالح من الخطب الذي عوضه من نضرة النعيم، ووجوه العرائق الغر، والتوكؤ على النمارق المصفوفة، والزراي المبوثة، في المتبؤ الكريم، واستنقال طلعة البدر، واستجفاء هبة النسيم بقنن الجبال العُبر، وسكنى الحل الحشن، ومفارقة الأهل والولد عند فراق الروح للجسد. جعلنا الله من الدنيا على حذر وتوق، وكتبنا ممن قدر قدره، ولم يأمن مكره. فقعدنا وقرأنا وأفضنا في الترحم ودعونا. وكان الانصراف بعد أن ألمنا في تلك المحلة بمسجد إمامهم المهدي ودار سكناه، وأثر مدرسته وسجنه، كل ذلك من الخمول واللطو واستهجان الآلة على حال شبيهة بمباني الدبر، وقرى النمل، وأعشاش الحُشاش من الطير. فعجبنا من مفتاح تلك الدويرة المهتزمة، كيف تملك من القصور العظيمة ما إن مفاتحه لتتوا بالعصبة أولي القوة؛ ولنبر ذلك المسجد كيف أخذ على كونه قمى الجلسة، مصاحباً لبعض القشر، برياً من الصنعة بأزمة المنابر المتخذة من الألوثة والصنل المقاصري في لونه، والأبنوس الحبشي، وأنياب الفيول، وأرعاها بعصياه، واستاقها بين يدي طاعته كالذود الشائل والسائمة الواردة ما بين قُرطبة وأشبيلية وغرناطة وإفريقية والمغرب، سنة الله في إدالة الدول، وتعقيب النحل، ألم تر "أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده".

وانحدرنا عن ذلك المرفق فأسهّلنا بطن الوادي، وأرحنا بجلسة موطاة، مُعدة لاستحمام السلطان رحمه الله، قد ظللتها الأشجار، تجري تحتها عين حرارة كأعظم الأنهار فوق حصى كدر النحور، القريبة العهد بلحج البحور، أو كشنايا الحور. تركت في تلك الجلسة أثقاب وخروت تفضي إليه، يُجعل الجعائل على إمساك اليد بها برهة معتبرة، يفتضح متعاطي ذلك لخصرها وما يؤثر البرد الشديد في حس عصبها. وجلب إلى ذلك المكان من الطعام والفاكهة والشهد ما يحار فيه الوصف.

ثم انتقلنا إلى محل التزول، ومثوى الكرامة من المضارب، ودعينا إلى الدور حيث سكنى أولئك الأشراف، يعمرنا بكل دار منها من الأطعمة ما يحار فيه الفكر ولا تنال منه إلا العين. وتشاهد من أجناس الفرش المرفوعة والمراتب المقدرة، والستر الديباجية المسدولة على الأرائك الممهدة، والسيوف المعلقة، تتخللها العدة من أصونة مُدمج القرآن وصحيح الحديث ساكنة في جفون منقوشة محلاة بالإبريز، مُقلدة بمحامل الحرير النسيج.

وعند الانصراف إلى المضارب، أقبلت التحف والهدايا من المقربات الكاملة تختال في الحلية، والكسا الرفيعة طي الأوعية الرقيمة، فعجز الشكر وبان التقصير. ثم غمر الطعام وتخلف الشيخ عن المجالسة والمواكلة معتذراً عنه بألم مانع نغص لدينا النعيم، وكدر الشرب تطيراً من وداعنا إياه حلس فراش أو رهين شكاية. ثم "أنه حدسنا أنه ألم الحسباء" وتذكرنا قول الأول:

إذا غدا الطَّيِّبُ في مفارقهم

راحوا كأنهم مرضى من الكرم

فحقتَّ الظُّنَّةُ، وصدقت المَخِيلَةُ.

ومن الغد كان الانصراف، فَشَيَّعَ وأبعد، وتألَّم للمفارقة وتوجع، كَثَّرَ اللهُ مِثْلَهُ، وكافأ قوله وفعله، وأورث عز تلك البقعة عَقْبَهُ.

ولم أبرح يوم زيارة محل وفاة السلطان أمير المسلمين أن قلت:

يا حُسْنَهَا من أربع وديار

أضحت لباعي الأمن دار قرارٍ

وجبال عز لا تَذَلُّ أنوفها

إلا لعز الواحد القهار

ومقر توحيد وأسُّ خلافة

آثارها تُتَّبِي عن الأخبار

ما كنت أحسب أن أنهار الندى

تجري بها في جملة الأنهار

ما كنت أحسب أن أنوار الحجى

تلتاح في قُننٍ وفي أحجار

مَحَّتْ جوانبها البرودُ وإن تكن

شَبَّتْ بها الأعداء جَذْوَةَ نار

هَدَّتْ بناها في سبيل وفائها

فكأنها صرعى بغير عِقار

لما توعدنا على المجد العدا

رضيت بعَيْثِ النار لا بالعار

عَمَرَتْ بِحَلَّةِ عامر وأعزها

عبد العزيز بمرفه بتار

فرسارِهان أحرزا قَصَبَ الندى

والبأسَ في طَلَقٍ وفي مضمار

ورثا عن النَّذْبِ الكريم أبيهما

محض الوفاء ورفعة المقدار

وكذا الفروع تطول وهي شبيهة

بالأصل في وِرَقٍ وفي إثمار

أزرت وجوه الصيِّدِ من هنتاتة

في جوها بمطالع الأقمار

لله أي قبيلة تركت لها النُظَّ

راء دعوى الفخر يوم فخار

نصرت أمير المسلمين وملكه

قد أسلمته عزائم الأنصار

آوت عندما ذهب الرَّدَى

والرَّوْعُ بالأسماع والأبصار

وتخاذل الجيش اللُّهَامُ وأصبح ال

أبطال بين تقاعد وفرار

كُفِرَتْ صنائِعُه فيمَمَ دارها

مستظهِراً منها بعض جوار

وأقام بين ظهورها لا يتقى

وقع الرَّدَى وقد ارتمى بشرار

فكأنها الأنصار لما أنست
لما غدا لحظاً وهم أجفانه
حتى دعاه الله بين بيوتهم
لو كان يُمنع من قضاء الله ما
قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما
ما كان يقنعه لو امتد المدى
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة
حتى تفوز على النوى أوطانها
حتى يلوح على وجوه وجوههم
ويسوِّغ الأمل القصي كرامها
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى
أو أن يُتوجَّح أو يُقلَّد هامها
حقٌ على المولى ابنه إيثار ما
فلمثلها دُخِرَ الجزاء ومثله
وهو الذي يقضي الديون ومثله
حتى تحجَّ محلة رفعا بها
فيصير منها البيت بيتاً ثانياً
تُغني قلوب القوم عن هدي به
حُييت من دار تكفل سعيها ال
وضفت عليك من الإله عناية

فيما تقدم غربة المختار
نابت سفارهم عن الأشفار
فأجاب ممتثلاً لأمر الباري
خلَّصت إليه نوافذ الأقدار
أولوهُ لولا قاطع الأعمار
إلا القيامُ بحقها من دار
ويعيد ذاك التُّرب ذوباً نُضار
من ملكه بجلائل الأوطار
أثر الرعاية ساطع الأنوار
من غير ما تُثنيا ولا استقصار
عن درهم فيه ولا دينار
ونحورها بأهله ودراري
بذلوه من نصر ومن إيثار
من لا يُضيع صنائع الأحرار
يرضيه في علن وفي أسرار
علم الوفاء لأعين النظار
للطائفين إليه أي بدار
ودموعهم تكفي لرمي جمار
محمود بالزلُفى وعقبى الدار
ما كرَّ ليل فيك إثر نهار

فلا تسل عن حسن موقعه لديه، وسرور نفسه به. وفي الحين طير به إلى أخيه كبيره وهو على سمو قدره وعلو ذروته، أشد الناس إيجاباً لحقه، وانخفاضاً لبأوه، وتطامناً بمجلسه، يقرضه وزان الأب في إلانة القول، وانكسار الطرف تسميةً لوظائف الجحد، وإقامة لسوق الحرية. فأورى عند لقائنا إياه زنده، وعقب الصلة الجزيلة عذره، وبلغ قصبات السبق فضله.

وانحدرنا من الغد إلى مدينة أغمات ورُيكةً عن درج نزلنا لجرّاه عن الظَّهر. وقدنا الدواب قوداً، فجازت ناجية عن صراط بعد سيات ومياط. واحتزنا على ديار هنتاةً بذلك السفح على حدود أضدادهم الوريكيين، وقد أسهلوا وانسطوا، ومثلت لهم الديار الحُمْر، تحف بها البساتين الخضراء، تحترقها المذانب الزُّرق. وأرحنا من تلك الجهة بالمسجد البديع الحافل البنية، السامي المئذنة، المقام لصق دار موسى بن علي الهنتائي، البادي ظللها، المنبئة عن أخبارها آثارها، تُوسِّعُه ما شاء من ثناء ورحمة.

ثم أتينا مدينة أغمات في بسيط سهل مُوطاً لا نَشَزَ فيه ينال جميعه السَّقْي الرِّغد، وتركبه الخيلان وقد تموج به العشب، وعافته الأيادي وغلَّت أيدي فلاحه الفتنة. وهذه المدينة قد اختطت في الفضاء الأفيح، فبلغت الغاية من رحب الساحة وانفساح القورة، مثلت قصبته منها قبله، وسورها مُحَمَّرُ التُّرب، سَجِحُ الجِلْدَة، مُندَمِلُ الخندق، يخترقها واديان اثنان من ذُوبِ الثلج وسور الجبل، قامت بصفتيها الأرحاء واردة وصادرة، مرفوعة الأسداد، منيعة البناء. يمر أحدهما بشرقي المسجد الجامع طامي العباب محكم الجسور، نظيف الحافة، نزهة للأبصار وعبرة لأعين النظار. ومسجدها المذكور عتيق عادي كبير الساحة، رحيب الكنف متجدد الألقاب. ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض. أسسها أولوهم مربعة الشكل وما زالوا يَبْحَسُونَ الدَّرْع، ويحددون العرض، حتى صارت مُجَسِّمًا كاد يجتمع في زاوية المخروط. وأدير عليه فارز من الخشب يطيف بناء لاط، وقد أطل سامي جامورها فوَّقه، فَقَبَّحَتْ حتى مُلَحَتْ واستحقت الشُّهرة والغرابة.

وأهل هذه البلدة ينسب إليهم نُوكٌ وغَفَلَة عُلَّتْها، إن صدقت الأخبار، سلامة وسذاجة، فَتَعَمَّرُ بملحهم الأسمار، وتتجمل بنوادير حكاياتهم الأخبار. فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة، استأذنه في نقلها إلى بلدة على سبيل الهدية، يجعلونها تحفة قدومه، وطُرفة وفادته.

وبازائها المسجد، بينه وبين النهر المار بازائه قبة عظيمة القبو، فخمة البنية، ترقص فيها فوارة حرقاء في خُصَّة من الحجر الأدكن مشطوفة الباطن رحيبة القطر، قد تثلمت بعض حافاتها لمماساة الأيدي، ومباشرة أجرام الخزف والفخار عند الاغتراف بما ينبئ عن قديم عهد وطول مدة.

وللسلطان بهذه المدينة دورٌ حافلة تدل على همم ومعالي أمم، واحتفال عوالم درجوا وأمم، قد ركلها العفا وجذب معاطفها الخراب. فما شئت من حُشْبٍ منقوشة وأطمٍ مرقومة.

وبداخل هذه المدينة بساتين وجنات، ولم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الأيِّم المهتزمة، فتشعثت محاسنها، وأخلقت ملابسها وأوحش عمرانها لتتابع الفتن وعيَّث الشرار الذين لا تُعَبِّدهم الطاعة ولا ترغهم الشريعة. أنقذ الله من لهأة التُّبار فريستها واستدرك بمدافعتة مسكنها.

وأطرفني الخطيب بما بأخبار من اعتقل فيها من مخلوع ملوك الأندلس وأمراء طوائفها كالمعتمد بن عبَّاد،

وأبي محمد عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس أمير وطننا غرناطة. ووقفني على تاريخ صدر عنه أيام اعتقاله،
 يشرح الحادثة على ملكه في أسلوب بليغ ختمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله.
 وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عبّاد، أمير حمص وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك
 الصقع الغربي رحمه الله، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد، قد تَوَقَّل نشراً غير سام وإلى جانبه
 قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماداً إشراكاً لاسمها في حروف لقبه، المنسوبة إلى رُمَيْك مولاها، المتولعة
 بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجدات من ولدتهما. فترحمنا عليه وأنشدته:

رأيت ذلك من أولي المهمات	قد زرت قبرك عن طوع بأغمت
ويا سراج الليالي المدلهمات	لم لا أزورك يا أندی الملوك يداً
إلى حياتي أجادت فيه أبياتي	وأنت مولى تخطى الدهر مصرعه
فتتحيه حَفِيَّاتِ التحيات	أناف قبرك في هَضْبٍ يميزه
فأنت سلطان أحياء وأموات	كُرُمْتَ حياً وَمَيْتاً واشتهرت علا
أن لا يرى الدهر في حال ولا آت	ما ربيئ مثلك في ماضٍ ومعنقد

وزرت أجداناً لأولياء وصالحين ختمتها بقبر الولي المتبرك به أبي عبد الله محمد الهزَمِيرِيّ.
 وكان الانصراف عنها من الغد، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار، تساقوها جَرِيَّاتِ الأثمار، تتخللها
 أطلال الحِلَلِّ والديار نَيْفًا على شطر البريد لا تنال صفح ثراه الشمس ولا ترتاده الحرباء، تتجاوب
 أصوات الحمام المطوّق فوق غصونه. وقد اقتطعت ذلك الجنب الخصب أيدي الوحشة، وأخيفت من
 حلال غابة السابلة، وسكن ربوعه الآهله البوم، فيا لها من مدينة غَزُرَ ماؤها وصح هواؤها، وأينعت
 أرجاؤها، وضمنى عليها من المحاسن رداؤها.
 وانتهبنا السهل انتهاباً، فدخلنا المدينة في مُتَمَكِّنِ الضحى، وألفينا محلة ولد السلطان مولانا قد استعجل
 الأمر استقدامها، فخيمنت على فرسخين، فشرعنا في الإياب وانتحينا طريق الساحل لنستدرك بمدينة
 آسفي. زيارة من بها من أولياء الله الصالحين وعباده المقربين.

لعمر أبيك إلا الفرقدان وكل أخ مفارقه أخوه

قلت نعم والفرقدان، سبحان من استأثر بالبقاء لا إله إلا هو.
 ولقيت بهذه المدينة جملة من أولي الدين والدنيا، فمن أهل الدنيا الشيخ الجليل كبير القطر، ومفزع الرأي
 ومسيطر خاصة الإمارة، متصرف وجوه الوجوه أبو ثابت عامر بن محمد، وأخوه هضبة الوقار، ونير

الأفق، وزهرة روض ذلك الحزن، ويقاوتة ذلك الجبل، وقد مر من التعريف بما ما يعني عن الإعادة. ومنهم نائب الملك وحافظ الرسم وجرار القصر الشيخ الفقيه علي بن العباس بن موسى بن أبي حمو، المعتمد لكفالة أولياء العهد، المستظهر بأمانته وصدقه على حفظ الأقطار المستباح الحمى في سبيل الوفاء، أجمل الشيوخ وحنة. وأسناهم شبية، وأحسنهم صورة، إلى الخلق السهل واللسان البليل الإطراء والبر، والذرع الفسيح، والمخاطبة الفضلة بفرائد التسويد، تكررت على المدى زيارته، وانصرفت شطر الوجهة عنايته، واسترخصت في استجلاب القصور والمعاهد هشته، وخفت إليها على الكبر والرقة حركته. ثم جمعت بين العرة العتيقة والمهتدة المحلاة والصامت الدتر هديته، عن خصاصة متقرره، وحال رقيقه لقصور دخله عن خرجه، وما جرّه كف يده، ووازع عفته، وجناه الوفاء من نكته. أصلح الله حاله، وزاده من جميل نظر الملك ما يقيم أوده.

ومنهم والي الوطن ومؤمن السبل وجماعة مال الجباية، الشيخ الرئيس الفقيه أبو عبد الله بن حسون بن أبي العلي وقد مر بعض ذكره. وهو فريد العصر بل الدهر في الخلال الميرة والخصال الحرة، من مذكر بالبرامكة، مغبر في وجوه سيقهم انتهازاً لفرص المكارم، وهالكاً في هوى المآثر، ما شئت من مغل لبضائع الحمد، منتقب بورد الخجلة، مرسل أعنة الاعتذار في أعقاب ملوكي العطية، يهب الكتابات غائبات، والمهى مستردفات، والجياذ عراباً، يقوم على الأصلين والمنطق، وهما الفنانان المهذبان للعقل المستدعيان لكثير من المواد، يُعترف له بالتقدم في ذلك، مشارك في غيره، حسن الصورة، مهيب جزل وقور حاسر عن الاطلاع والكفاية، لم يبلغ عندي في البر مداه، ولا بل جناح شكري ندى كنداه. ولقد أقسم بالغموس بعد أن بان رزحه من وظائفه الباهظة، ووقود زمنه عن أمله، وقصور وجدده عن مرمى همّه أن لو ألفى سعته التي تعودها، لنقدي ثمن ما غصبتّه بالأندلس عن يد، إبلاغاً في المكارمة ونزعاً إلى هدف الحرية، واسترقاقاً لرقة السؤدد. حفظ الله نعمته، وحاط حظوته، ورد عنه النوائب صاغرة، والحوادث ناكسة. وكثيراً ما خاطبته بعد وداعه من محال كرامته بالطريق من عمالته الفسيحة الخطّة، وقد ألزم من نبلاء خدامه من تمم الوظائف وكمل المآرب. بمثل قولي:

يا خاتم الفضل أو يا حاتم الزمن	ومشتري الحمد بالغالي من الثمن
ومرسل المثل الجاري بكل علا	فوق البسيطة من شام إلى يمن
يا من إذا ما حكاه الجلة افتضحوا	إذ التورم ممتاز من السمن
يا من تلقيت منه الخلق في رجل	وقدت نافرة الأيام في رسن
الله ماذا رأيت عيني وقد لمحت	ذاك الكمال وماذا قلدت أذني

ذع ذكر قيصر أو كسرى وما جمحت

به الحكاية عن سيف بن ذي يزن

ما الفخر إلا لملك أنت تخدمه
فحلّ منه محلّ الروح في البدن
إن لم يَفُزْ منه بالغايات مثلك أو
تعلو الكواكب في آفاقه فمن؟
تبأى العلا منك يوم الفخر بابن أب
جمّ السيادة عفّ السر والعلن
ماضي العزيمة ميمونٌ نقيبته
جارٍ من البر والتقوى على سنن
إلى مضاء كنصل السيف يعضده
رأي يفرّق بين الماء واللبن
أفادني زمني لفيك معتذراً
عما جناه فلا أدعو على زمني
من بعد لفيك لا آسى على وطر
مهما تعذّر أو أبكي على وطن
عقدتُ صفقة ودّي فيك رابحة
إن حالت الحال لا تخشى من الغبنِ
فالبس نسيجة ما قدمت مُعلّمة
من صنعة اليمين تنسى صنعة اليمين
من زار ربّعك لم تبرح جوارحه
تروي أحاديث ما أوليت من مننِ
فالعين عن قرّة والكف عن صلة
والقلب عن جابر والأذن عن حسن

ومنهم صاحب الأشغال ملك الحضرة الشيخ الفقيه الموصوف بالسلامة والعفة، الكاسع إلى صف
الانقباض، المتحيز إلى فئة العافية، المعفي اليد عن غمسها، في كيل الجباية، أبو الحسين بن الرئيس الصدر،
مؤمّل الدول الأولى، المخصوص باليد الطولى، أبي محمد عبد الله بن أبي مدين. جالسته فأريت ذكاه
متوارياً في حجر تغافل، وسداحة تشفّ عن ظرف، وخاطبني صحبة برنكانه بما نصه:

أيا سيدياً حاز سبق العلا
بفضل النهي والسجايا الحسان
ويا نخبة الوقت والمقتدى
به في فنون علوم اللسان
ويا أوجد العصر في نثره
وفي نظم الشعر كنظم الجمان
بنان تريك بخط اليراع
بمهرقها سحر علم البيان
لقد حُزت في العلم أعلامه
بحفظ النصوص وفهم المعان
وحزت ذرى كل شأو رفيع
فلا تسألن عن قل أو فلان
وقفت ابن أوّس بنظم بديع
كما فقت نثراً بديع الزمان
أنار بك القطر لماً قدمت
وظرف الزمان وظرف المكان

وَأَنْسَتَ مَنْ نَفُوساً لَهَا
بِقُرْبِكَ مَا تَنْتَهِي مِنْ أَمَانٍ
تَقَبَّلَ هَدِيَّةً مِنْ لَمْ يَزَلْ
يُحِبُّكَ بِالسَّمْعِ قَبْلَ الْعِيَانِ
فَلَمَّا رَأَى شَخْصُكُمْ زَادَهُ
وَلَوْعاً بِكُمْ حِينَ تَلُكُ الْمَعَانَ
سَلَامٌ زَكِيٌّ كَعَرَفِ زَكِيٍّ
يَخْصُكُمْ مَا بَدَأَ النَّيِّرَانَ

ومن أهل العلم والدين الشيخ الفقيه القاضي أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الهرغي الزقندري، وزقندر معدن الفضة ببعض تلك الجهات ولذلك ما قلت أداعبه:

سَأَلْتُكَ عَبْدَ اللَّهِ إِيضَاحَ مُشْكَلٍ
وَأَنْتَ لِكَشْفِ الْمَعْضَلَاتِ بِمِرْصَدٍ
زَقَنْدَرُ قَالُوا عَنْهُ مَعْدَنُ فِضَّةٍ
فَمَا بِالْهُ أَبْدَاكَ نَدْرَةً عَسَجَدٍ

فاضل متفنن حسن الهيئة، راجح الوزن كثير الوقار بعيد عن الدخلة، متساوي الظاهر والطوية، مُطْرَحٌ للهوادة، ما شئت من رجل غزير الحفظ، جيد المعرفة، مضطلع بفنون، سديد النظر، حَمَّ المشاركة في حديث ورواية وتاريخ وخبر وكلام وفقه ونظم ونثر، إلى فضل المجالسة وحسن العشرة والغفلة عن نصيب النفس والاحتطاب في حبل الرفيق، وإقطاع، غبيط السداجة وفضل الفكاهة، والجهر بالتلاوة في سبيل الورد المترتب ناشئة الليل ومبادئ الإسحار. رحل وحج ولقي كثيراً من الفضلاء، وأخذ عن عدد كثير من أهل المغرب دراية ورواية. فمن المراكشييين: أبو العباس الغفائري، وأبو الحجاج الدغوي، وأبو القاسم بن مُعَنْصِرٍ، وأبو القاسم ابن القشاش، وأبو عبد الله بن مسعود. ومن أهل أغمات: أبو يحيى الجزولي من حفاظ المذهب. ومن الفاسيين: أبو محمد عبد العزيز القروي، والقاضي أبو عبد الله ابن عبد الرزاق. ومن أهل تازا: أبو محمد الرَّجَّالِي. ومن التلمسانيين: الشيخ الفقيه النظَّار أبو موسى بن الإمام والقاضي أبو العباس المديوني، والشيخ المحقق نسيج وحده في العقلية أبو عبد الله الأبلبي. ومن التونسيين أبو عبد الله بن دمعون، وابن هارون، وابن عبد السلام، والرواية الرَّحَّال أبو عبد الله بن جابر ومن أهل الإسكندرية: أبو العباس بن فتوح، وجمال الدين بن سلامة القضاعي، والعدل أبو الحسن بن الفرات، والمشايخ الأربعة محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، وإسماعيل الضرير، وأبو الحسن الإقبالي، وجمال الدين بن عبد الرزاق الربيعي وناصر الدين بن المنير. ومن أهل مصر قاضي المالكية تقي الدين الإحساني، وأبو الحسن المارديني، وعز الدين بن جماعة، وجمال الدين الدلاصي، وأبو حامد السبوكي. ومن أهل دمشق: شهاب الدين بن فضل الله كاتب الإنشاء، وشمس الدين بن نباتة، وأبو الخير الحريري، وشمس الدين السلاوي آخر أصحاب ابن عبد الكريم، وتقي الدين بن عبد الكافي، والعلامة الأديب أبو الفضل ابن

صرايا. ومن الصالحية: عز الدين المقدسي، والمسند عبد الرحيم التنوخي. ومن أهل مكة: شمس الدين التوفري، وإمام الموسم خليل بن محمد. ومن أهل المدينة: عفيف الدين المطري من ذرية سعد بن عبادة. ولي قضاء مراكش في منتصف رمضان عام ستين بعد ولايته أغمات وسبته ومولده بمراكش في سابع عشر ربيع الأول عام خمسة وسبعمائة. وابتدأ لهذا العهد تخريج الأحاديث التي أشار إليها الترمذي. وأنشدني من نظمه ولها حكاية تدل على ظرفه وحسن عهده:

ولما تجاوزنا زلولاً وشنّة **وطاشت حلوم لم تكن قبل طائشة**

تيقنت أن لا منزلاً بعد سبته **يسرُّ وأن لا إلف من بعد عائشة**

توجه مؤانسا لي متحفياً إلى جبل هنتانة، فأمتع ما شاء حفظه الله وأحسن مجازاته. ومنهم الشيخ العدل القاضي برباط آسفي عبد الرحمن بن علي بن أبي العيش القيسي المعروف بطالب عافية، من الصدور الجلة وأعلام الطلبة بتلك البلدة فضلاً وعدالة وتفناً ومشاركة، يخوض في كل فن، ويُلقى دلوّه إلى كل حوض، أصيل الحفظ جيد البحث، بعيد عن السامة، لا يمر له وقت ضياعاً إلا عن مذاكرة في فن أو إجراء طرفة، غير مُبالٍ بتهويم نوم، وهجوم هاجرة، أو مخالطة كد إلى حُسن العشرة ودماثة الخلق، وإيثار التحلي والعزلة والحوم على السلوك والتجريد. شارك القاضي أبا محمد في كثير ممن ذُكر أخذه عنه من أعلام بلده.

ومنهم الأستاذ المتفنن النظّار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الفخّار، أستاذ المدرسة العظمى من أهل العلم والفضل والمشاركة والتفنن، يقري بها علم اللسان والأصلين والفروع، فيمتّع ويحسب على طرش كدّر رحمه الله الانتفاع به ونعّص الأُنس بمجلسه نفعه الله..

وانتابني من الظرفاء والأدباء الشيخ الفقيه المكتّب أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن عمر بن عبد الله الصيّري، من أهل النبل والظرف على خُلُقٍ زعموا غير سبّط، كتب عن الأمراء بمراكش، وأبي العباس بن حسين الغفائري، والخطيب المحدّث أبي عبد الله بن رُشيد، والقاضي أبي الحجاج الطرطوشي، والمقرئ أبي الحسن ابن برني، وأبي العباس الفرقسي، وأبي العباس بن برني، وأبي العباس بن القراق، وأنشدني من شعره:

مَنْ لَمْ يُفِدْكَ بِنَفْعِهِ أَوْ جَاهِهِ **فَلأَيُّمَا اصْتَصَنَعْتَهُ مَخْذُومًا**

فَلتَخْدِمِ اللهُ الَّذِي مِنْ أُمَّهُ **بضمير صدق يلف منه رحيمًا**

ومن نثر قوله: وأما الكتابة فلفظ نَحْلَةٍ حُذفت تاؤه، ومعقل خُذَلَةٌ شرع من غير محلّه إبتاؤه، وهي حطة استغنى الناس بذّيّانها عن سَحْبَانِهَا وعن مُلَاكٍ أزمّة آدابها بجهلة طُلّابها، فمن رأسها معهم من ذوي

المروءات والهمم من سائر الأمم، فقد ارتكب الصعاب وتوى مقعداً من المذلة والهون أتى شاء من سائر الأبواب فهو ينشد سائليه عن حاله بلسان عذر كليل، وقلب عليل، معترداً في الضرائر بما قد قيل:

ألا قاتل الله الضرار فإنها
تعلّم خير الناس شرّ الطبائع
وتحمّل ذا الطبع الشريف تكرماً
على ذلّة في عيشه وتصانع

وكان السفر من مراكش يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وقصدنا باب الرّخا من أبوابها غلّساً لنصايح تربة الشيخ، قصد التزود ببركتها، فتعذر فتح الباب وطال به الوقوف وأعْيِيَ علاجه، فانصرفنا عنه وفي أنفس بعض المشيغين حزازة من ذلك، فأنشدت منهم الشيخ القاضي أبا محمد الزقندري بديهة:

يا محلاً لخُلتي وانتحائي
لم يُبِح لي الخروج باب الرخاء
دل أن الرخاء مغتبط بي
فبحق تبجحي وانتخاء

فحُفِظ واستُطِرْف، وتحول الحزون إلى ضده والله الموفق للأقوال والأعمال بفضله. وحثنا السير على تَفِيّة ارتحال الجيش وتوقع الفساد في السُّبُل، صحبة لِمّة من أشياخ وراء سكان الصقع، واستقبلنا حي بني الحارث من عرب العمود، جَدْوَة شرار الشرار أولى الحراية والحراية. فزلنا بمحلة من حلل رعاء البهْم وقد أوقع في طريقنا يومئذ بمحرويين حار أحدهما ونجا ثانيه برأس طِمِرّة ولجام. ورحلنا من الغد في قفر تُندر ببعض مهامه به أبيات نائية للمُسَمِّين، وبتنا بحلّة من حلل بني جابر أولي إبل وشاء. ورحلنا من الغد فتجاوزنا غَوَلاً، وتخطينا مَطَنّة اعتراض، ومَسْبَعَة فُسَّاق في حدّ بين بلاد بني الحارث، وبني وراء، يُولي كلّ منهم خُطّة الملام جاره عند إعداء الرُّفُق المصابة، وإصراخ السلطان لندائهم.

ودخلنا بلاد بني مافر، فكان المبيت بسورها تحت خصبٍ وأمنه، ومنها صرفنا من صحب من أشياخ تلك الأرض عن شكر وإطراء، وإن كنا في مَطَنّة الرُّوع، نرى منهم اخزرارَ عيون ومخايلَ فتنة. ومن الغد سلكننا وطن بني مافر وهو كثير العمران، متعدد الديار والأشجار سَقِيه من نطاف عذبة تَحْتَرُنُ بها بركات الأمطار فيقع بها أمنهم والاجتراء إلى زمن المطر. وبها كثير من الصالحين وأولي الخير وأرباب التلاوة، وربما أَلْفِي بها ضدّهم، والله درُّ القائل:

الناس كالأرض ومنها هم
من خشن فيها ومن ليين
مرؤ تشكى الرجل منه الأذى
وإنمذ يجعل في الأعين

ووردنا مدينة آسفي وقد تمكن النهار، فلقينا موكب أرباب الخطط باين مُعدين. ولما شارفنا، ركبنا إليها صردوكها أحمد بن يوسف حفيد الولي أبي محمد صالح، القائم في ظل صيته، وأثير الناس من أجله، رجل أدم اللون، قد تَعَجَّلَ الوَحْطُ منه، ذقن كث ذو تيقور، جالس السلطان، وقاد ركب الحجاز، وجرَّ بيلده دنيا عريضة واقتعد غارب غنيّ جمّ، يفد على باب السلطان في سبيل دالةٍ بقديمه، ويقفل إلى وطنه مجد الصكوك مستجاد الخلعة. خاطبته بين يدي قدومي بقولي:

ر الذي نال في مقام وحال

كل قفر يُعْيِي أَكْفَ الرِّحَالِ

يا حفيد الولي يا وارث الفخ

لك يا أحمد بن يوسف جُبْنَا

أبقاك الله كتابةً انتفاع ونوراً بأعلى يَفَاع، ومتضعاً على علو ارتفاع، ترى الوثرَ في إشفاع، وتقابل الوهم بطراد من الحقيقة ودفاع. إن حثت على لقاء الأعلام شهرتهم فلك الشهرة، وأنت العلم والشهاب الذي تُجَلِّي به الظلم. ورباط جدك بالمغرب الركن المستلم، فيلى أين يذهب عن جنابك الذهاب، وقد وضحت المذاهب، والله المانع والواهب. وإني من لدن اجتليت غرَّتكَ التي تلوح عليها سيما الولاية إرثاً واكتساباً وانتماء إلى جناب الله وانتساباً جزاء من ربك عطاء حساباً؛ أومل التوسل والتقرب وأخطبُ منك الأُنس الذي أنسى به التغرب إلى أن تَهَيَّأَ بفضل الله وتيسر، وتبين مجمل الشوق وتَفَسَّرَ، وشتان ما بين من أترى وأعسر، فأنا الآن والحمد لله قد حططتُ بمتوى الولاية رحلي، وعشرتُ بأزهار أسرار الأبرار نحلي، وأخذت من الدهر دَحْلِي، وحللت من رباط الشيخ أبي محمد بالحرم الأمين، وظفرت من ودِّ حافده بالذخر الثمين فيا ليت قومي يعلمون ما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين. عَرَفْتَكَ أبقاك الله بقصدي وحرمة رَصْدِي لتعلم أن هذه الوجهة لقاؤك أقوى دواعيها، وأنجح مساعيها، وبركة الشيخ نفع الله به تلاخطها وتراعيها، فما استَبَعَدَ المرام من قَصَدَ الكرام، وما فقد الإيناس من أمل الناس، وتَنَحَّلَ الأفراد، وتخطى الأجناس، وترك للنص القياس، وتَمَلَّكَ المَنِّ لما أحرز الرياس، وسيدي بعد وما يظهر له من تأنيس غُرْبَةٍ وإزاحة كُرْبَةٍ، ورعي وسيلة وقُرْبَةٍ، وإتحاف باجتلاء حمى مزورٍ وتُرْبَةٍ، والله عز وجل يقيه مقصوداً على بعد المكان، مُرَجِّحاً في الفضل طَرَفِ الإمكان مطمئن القلب بذكر الله رطب اللسان؛ مُدْرَجاً في الوصول لِسَنَامِ الإسلام والإيمان والإحسان.

واضطَبَّن من ابن عمه الخطيب بالبلدة، شاحباً صامتاً مهمهماً بذكر، مُتَبَدِّلاً عند الأكل إشعاراً بالإمسك، أوماً مع ذلك، زعموا، إلى دنيا عريضة كابن عمه وشُحِّ مطاع، فرحب الكل وأطراً اللقاء. وجئنا إلى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة. فضاؤه رَحْبٌ مرصوف بججر الكدان

يدور به، سقيف نظيف ذو أبواب تفضي إلى زوايا ومدافن، وبطوله عن يمين الواج مسجد الصلاة وترية الشيخ في بيت عُمَدٍ سَمَكُهُ لانفساح عرضه بقائم من الخشب، وقبر الشيخ قبله عن يمين الداخل إليه، قد اتخذ له حوض من الخشب من الرفيع أكسبته الأيام دُهْمَسَه، فتخاله منحوتاً من الألوّة قد اَمَلَسَتْ من الاستلام حافته، وسوي من نظيف الرمل سَبَّحُهُ، وبازائه قبور شبيهة به في الشكل لولده وحفدته، تتخللها الحُصْرُ النظيفة، فقضي الغرض من القراءة والدعاء، وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية وقد استعرضهم أبو العباس طائفتين ورتبهم للسلام علينا غابطاً إياهم مُطْرِيّاً مؤنساً، فدعوا وأجملوا، وعرض علينا طعام الشيخ أبي محمد رحمه الله، وقرى ضيفه الجاري عليه من بيت المال حافده المذكور مُحَكَّضاً في قُلِّهِ وكُثْرِهِ، فجلب حوان بهي اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لا تتخلف عن طعام ولا شراب. وانصرفنا إلى المحل المعين للترول. وهذا البلد فسيح طيب الهواء كريم التربة خصيب الجناب. وأهله أولو خَيْرِيَّةٍ وجنوح إلى الصلاح؛ وهو لَبِنَةُ التمام للمسوّرات بالمغرب، ليس وراءها مدينة جامعة، ولا محلة مسورة، ودونه أمم تتصل بالسوس الأقصى إلى تخوم الحيشة من وراء الصحراء. ومن ساعة إمامنا انزوى عنا الشيخ أبو العباس سردوك، لِلْهَوِّهِ، واشتغل زعموا بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه، لم يَقْسَمَ اللهُ للضيف من مَادِبَتِنَا بحظ، وشحَّ بإيناسه وتردده، فَحَدَسْنَا أَنَّ ذَلِكَ إِبْقَاءٌ على نفسه لما تُكْشِفُ المِجَالِسَةُ من حال يَمُدُّ لها أبو حنيفة رجله. وهممت أثناء طريقي أن أخاطبه بسعوط افتتحته بأبيات مطلعها:

إِذَا لَمْ تَهْذَبْكَ الْأَبْوَةُ وَالْحَجُّ فَأَنْتِ عَلَى فَوْتِ الْجَنِّي ثَمْرٌ فَجٌّ

ثم تصدقتُ على حِلْمِ الشَّيْخِ بِجَهْلِهِ، وَحَرَمْتِ صَيْدَ آبِدِهِ فِي حَرَمِ مَحَلِّهِ، أَصْلَحْنَا اللهُ وَإِيَاهُ.

وصلينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق، ومجمع فسيح متعدد الزيارات والصحون والتعاريح، سبق منه ما بين يَدَيِ المِحْرَابِ بعضٌ على أيدي قوم من الصالحين، رفعوا به عَمَدًا تناهز الأربعين، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسداجة يباشرها سقف لاطئ من غير نقش ولا إحكام عُلَّتْهَا خُشْبٌ بالية، وَقُضِبٌ ناخرة، بما يدل على قَدَمِ العهد، وينبئ على اجتناب فضول العمل. فلم تمتد إلى تغييرها يد، ودارت بها الزيادة النبيهة والبلاطات من جهاته. وبصحن هذا المسجد جَبَابٌ للماء يتباها الناس لسقيهم ووضوئهم فَيَحْسِبُهُمْ. ويقابل القبلة من جوفي الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكراً لله، فَيَعَاظُونَ مقام التوكل، فلا يُغْبُ عنهم التفقد.

وبهذه البلدة، المدرسة والمارستان، وعليها مسحةٌ من قبول الله. وهوؤها أطيب أهوية البلدان، يستدعى

الدثار في القَيْظ لبرده ولطيف مسراه. وتردد بها إليّ صاحب السوق ومقيم رسم المارستان، الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد ابن منير الهاشمي الجزيري، من أهل الظرف والخيريّة والتمسك بأذيال أهداب الطّلب. حَسَنُ الخَطِّ جميل العشرة، خفيفٌ في سبيل المشاركة. نشأ بالخضراء، وحضر حصارها، وحج وخدم صاحب بدمشق فأحظاه. أنشدني من شعره يخاطب السلطان عند قدومه من الحج قوله:

قدموا عليك عَقَبَ حَطِّ حُمُولِ
شُعْتًا على حُبِّ التَّحِيَةِ تَرْتَمِي
زِوَارُ خَيْرِ مَنْبِيٍّ وَرَسُولِ
بِهِمْ لِبَابِكَ فِي ذُرَى وَسَهُولِ
ليكون خاتمة الكمالِ وَمِسْكَهُ
تَقْبِيلُ كَفَّكَ فِي بَسَاطِ قَبُولِ

من قصيدة جارية على هذا الأسلوب. مولده بالخضراء عام خمسة وسبعمائة. وكان الرحيل يوم السبت الخامس والعشرين من الشهر المذكور إلى منزل ينسب لأبي خَدُو فيه رجل من بني المنسوب إليه اسم يعقوب، طَرَفٌ في الجود زعموا جرَّ بذلك المرزأة إلى عتاده. فألطف وأجزل ورتب الحرسه وآنس في الليل وطلبني بتذكرة تُثَبِّتُ عندي معرفته في الآتي، فكتبت له:

نزلنا على يعقوب نجل أبي خَدُو
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى
فعرفنا الفضل الذي ما له حدُّ
فلم يبق لحم لم ننتله ولا زُبْدُ
ويلقاه منضاً البرُّ والشكر والحمد
يحق علينا أن نقوم بحقه

قيل لبشار بن برد، بينما أنت تقول:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً
هتكنا حجاب الشمس أو قَطَرَتْ دماً

ثم تقول:

ربابة ربة البيت
لها سبع دجاجات
تصب الخل في الزيت
وديك حسن الصوت

فقال، قلت ذلك أخاطب امرأة من البادية في خيمة قرتني بدجاجة وبيض كانت لديها أحسن من: قفا نيك من ذكرى حبيب ومترل.

ثم سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكَّالَة، وهو حَلَقٌ ذو شرفات وأبراج، بادي الانثلام والتشعيت غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المُصْحَرَة بالتحصين، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة، الجَمِّ الماشية، المُنْبَثُّ الحِلَل، الغاصُّ على انفساح مدها بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة، البالغ عدد أزواجه لإثارة الأرض ومعالجة الحرث، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه، يُتَحَرَّمُ به عند الغارة الشعواء المُصَمِّلَة يطرقهم بها عدوهم من بني الحارث وأحلافهم من سكان السهل

والجبل فَيَسُدُّ عندها. وعلى ذلك فهم لحم على وَضَم ولقمة بين لَحْيَيْنِ، ويخارجه سوق جامعة يُحْشَرُ إليها الناس ضحى، ويتقاطرون من كل مَرْمَى يَمْتُلُونَ في صعيد واحد، قد خيمت تجارهم وظلوا، ولا ينفضُ الجمعُ إلا مع انقضاء بياض يوم.

وقد كان رُفِعَ إلى السلطان المُعَرَّى بالبناء وتخليد الآثار أبي عنان رحمه الله، خَيْرٌ ما عليه الناس من إخافة عدوهم، واهتضام عَرَصَتِهِم واستهداف عَقْوَتِهِم، فأمر بارتياح مَحَلٍّ لتأسيس مدينة، فاختر على غَلَوَاتٍ منهم، محلُّ أرضه صخر منطبق على تراب، يتأتى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا، بعيد المَهْوَى، يبني السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء. فشرع في البناء واستبعد الفضاء، وَمَثَلَتْ الأبواب العديدة، والأبراج المشيدة. وعاق عن إتمامها هجوم حِمَامِهِ وانصرام أيامه، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته.

وتلقانا مشرف المَحْبَى بها الشيخ الفقير الخير أبو عبد الله اللِّجَائِي، قريع الأمانة والفضل، العف اليد، الحَصُور عن مساس الجباية، المتصل الاستعمال باستصحاب الحال الرقيقة، وسقوط التهمة من أهل الطلب والسداجة وحسن العهد وكرم العِشْرَةِ، الجواد على كونه مَنِيناً عدم العتاد في حال الكِبْرَةِ. تلقانا في جملة من أتباع الخِدْمَةِ، ثم تلاهم مركب القاضي والعدول، وقاضيتها الحاج أبو عبد الله محمد ابن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزَّمُورِي، رجل مختصر البنية والثوب قد طرقة الوُحْطُ على حداثة، يحفظ غُثَاءً من منقول كتب التفسير وغيرها، ذاكرٌ لمسائل متعددة، مسترسل اللسان في أسلوب يفضحه الإعراب عادةً لا جهلاً بقانون النحو. شمسٌ عند المذاكرة في المسائل العلمية، أطرفَ بحديث رحلته. ولما نزلنا حَنَسَ فلم نسمع له ذكراً إلى أن شِيعْنَا من الغد، فَسَعَّطُنُهُ بخردل العُتْبِ ديدني في مقصِّري هذا الصَّنَقِ القَمْنُ بفعل الأغنياء في البر المستحق لولا رؤية الفضل لنفسه بمزية الفضل، فَزَلَّةَ العالم معروفة بعدم الإقالة، فاستعتب واعترف، وسألته الإجازة فيما يحمله، واكتتاب شيء من منظومة الكثير، وقد سَمَّى موضوعات ذكرها من تأليفه فوعد بذلك مُطَيِّراً به إلى محل المبيت ليلتئذ. وتلاحق بي رسوله بترز يتضمن ذكر أشياخ أكثرهم غير مسمَّى، وجلب شيئاً من حاله حتى عن القابلة التي التقطته ورؤيتها إياه على هيئة عن المُكَلَّفِ المخاطب بوظائف الشريعة من سجود ورفع يد إلى السماء، إلى أمثال هذا. فخاطبته وأعدت الرسول إليه بقولي:

إليك وكلا ليس منك قليل

أليس قليل نظرة إن نظرتها

وَصَلَّتْ أَيُّهَا الْفَاضِلُ رُقْعَتُكَ الَّتِي تَضَمَّنَتْ الْفَوَائِدَ، وَصَلَّتْكَ الَّتِي اسْتَصْحَبَتْ الْعَائِدَ، وَشَاهَدَ فَضْلَكَ الَّذِي بَيْنَ تَصْرِيفِهِ الْأَصْلِيِّ وَالزَّائِدِ، مَتَفَنَّنَةً فِي ضُرُوبِ لَا تَجْنَحُ شَمْسُهَا لَغْرُوبَ، هَزَتْ أَلْحَانَهَا مِنِّي عَطْفَى طَرُوبَ، وَاسْتَقَرَّ قِرَاهَا بَيْنَ يَدَيِ أَكُولٍ لِمَثَلِهَا وَشُرُوبِ. فَلِلَّهِ مَا تَضَمَّنَتْ مِنْ فَوَائِدِ رِحْلَةِ حِجَازِيَّةٍ لَيْسَتْ مِنْ حَسَنِ الْحِجَى زِيَّةً، وَذِكْرِ أَعْلَامٍ وَأَرْكَانِ اسْتِلَامٍ إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتْ كَلْبَلَةَ الْوَصْلِ مَا عَابَهَا إِلَّا الْقَصْرَ، فَلَوَدِدْتُ أَنْ لَوْ أَمَدَهَا بِسَوَادِهِ مِنِّي الْقَلْبُ أَوْ الْبَصْرَ. بَخَسَ وَزَنَاهَا الْإِخْتِصَارَ لَا بَلَّ الْإِقْتِصَارَ، وَافْتَقَرْتُ إِلَى شَرْحٍ يَقَعُ بِهِ عَلَى مُتَعَاصِي مَعَانِيهَا الْإِنْتِصَارَ، وَوَعَدَ الْمَجْلِسَ الْقَاضِيَّ بِاِكْتِتَابِ شَيْءٍ مِنْ مَنْظُومِهِ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ كَثِيرٌ وَمِهَادٌ وَثِيرٌ فَمَا كَانَ إِلَّا الْوَعْدَ، وَالْأَخْلَافُ مِنْ بَعْدِ:

يَا لَوْ أَدَّ الدِّينَ عَنِ مَيْسَرَةٍ وَالضَّنِينَاتِ وَمَا كُنَّ لَنَا مَا

وَالظَّنُّ بِسَيِّدِي أَنَّهُ دَعَا عِنْدَ شَرْبِهِ مِنْ بَثْرِ الْحَرَمِ، بِأَنْ تُرْفَعَ عَنْهُ مَوْئِنَةُ الْكِرْمِ، فَأُجِيبَتْ الدَّعْوَةَ كَمَا وَرَدَ، وَاسْتِقَامَ الْعَمَلُ وَاطْرَدَ، فَكَانَ الْإِقْتِصَارُ عَلَى مَسَافَةِ قَصِيرَةٍ، وَمِلَاحِظَةُ الْبِرِّ مُقْمَلَةٌ غَيْرُ بَصِيرَةٍ، وَالزِّيَارَةُ مُزَوَّرَةٌ، وَأَظْنَهُ لَاحِظٌ بَيْتَ شَاعِرِ الْمَعْرَةِ:

لَوْ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ زُرَّتُكُمْ وَالْعَذْبُ يُهْجِرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الْخَصْرِ

وَالْقَرِيُّ قَدْ كَفَى الْقَاضِيَّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَوْئِنَتُهُ الثَّقِيلَةَ، وَلَمْ يُحَوِّجْ إِلَى تَشْوِيْشِ الْعَقْلِ وَاسْتِخْدَامِ الْعَقِيلَةَ، وَهَذَا الْقِسْمُ غَيْرُ مَعْدُودٍ وَلَا تَقَعُ الْمَشَاحَّةُ إِلَّا فِي مَوْدُودٍ. وَهَمَّ بِتَحْفَةِ شَعْرِهِ ثُمَّ قَالَ بِالْبَدَاءِ وَنَادَاهُ الْإِنْجَازَ فَصَمَّ عَنْ النَّدَاءِ فَاطْرَدَ بَابَ الشُّحِّ حَسًّا وَمَعْنَى، وَمَوْحَدًا وَمَثْنِي حَتَّى دُكَّالَةَ، شَرَابَةٌ لَسَرُو الْقَضَاةَ أَكَّالَةَ، وَبِيَدِهَا لِنَحْجِيرِ أَيْدِيهِمْ وَكَالَةَ. وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ كَانَتْ لِحُبِّهِ حَرَكَةُ الْفَتْحِ، وَوَجْهَةُ الْمَدِّ وَالْمُنْحِ، فَلَوْ لَمْ يَقَعْ فِيهَا بُخْلُهُ تَمِيمَةً، لَلَقَعَتْهَا الْعَيْنُ وَعَسَّرَ الْهَيْئِينَ، وَالْقَاضِيَّ أَعَزَّهُ اللَّهُ كَمَالَ، وَعَيْبَ الْكَمَالَ لَا يُنْكَرُ، وَالغَالِبَ الْفَضْلَ، وَغَيْرَ الْغَالِبِ لَا يَذْكَرُ، وَهُوَ عَلَى التَّأْفِهِ يُشْكِرُ. دَاعِبْتُهُ حَفْظَهُ اللَّهُ مَدَاعِبَةً مِنْ يَعْتَقِدُ خِلَافَ مَقَالِهِ، وَيَرْجُحُ الْقَنَاطِرَ الْمَقْنَطِرَةَ بِمَثْقَالِهِ، وَلَا يَقُولُ فِي حَالِ سَرْوِهِ بِإِنْتِقَالِهِ، وَمَعَ الْيَوْمِ عَدَ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ أَمَدٌ، وَيُرْجَى أَنْ يَمْتَعَ اللَّهُ مِنْهُ بَوَقْتٍ يَقَعُ فِيهِ اسْتِدْرَاكٌ، وَيَرْتَفِعُ بِإِخْتِصَاصِ التَّرْوَلِ لَدَيْهِ اشْتِرَاكٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكَانَ الْمَبِيتُ بِحِصْنِ أَسَايِسٍ مِنْ حِصُونِ دُكَّالَةَ شَأْنُهُ مَا قَبْلَهُ بِطَلَلٍ، دَارٌ عَادِيَّةٌ مَلُوكِيَّةٌ الْوَضْعُ، تَنْسَبُ لِأَحَدِ أَشْيَاحِ الْوَطَنِ مِمَّنْ غَمَسَ يَدَهُ مِنَ الْجَبَايَةِ فِي الدَّمِ وَالْقَرْتِ تَدَلُّ عَلَى انْسِحَابِ دُنْيَا كَانَتْ سَحَابَةَ صَيْفٍ، وَاللَّهُ يَتَجَاوَزُ عَمَّا جَرَتْ مِنْ نَكِيرٍ، فَهُوَ الَّذِي يُوَاطِئُ بِمَا كَسَبَتْ الْأَيْدِي وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ. وَرَحَلْنَا مِنَ الْغَدَفِ يَسْهَلُ اقْتِحْمَانًا بِهِ حُدُودِ الصَّنَاهِجَةِ، وَبِتَنَا بِمَوْضِعٍ يَعْرِفُ بِأَسْكَوَانٍ بَازَاءِ رَجُلٍ مُنْتَمٍ لِلصُّوفِيَّةِ أَعْجَمَ اللِّسَانَ، قَامَ بِالتَّرْوَلِ عَلَى خِصَاصَةِ وَاضْطِرَارٍ، فَأَتَيْنَا لَهُ وَاحْتَسَبْنَا كَدَّحَهُ.

وعُدنا من الغد إلى أزمور، فرأينا صدق المثل في قولهم العود أحمد، فتلقينا بها أصناف الفضلاء مصحرين، ولوظائف البر متممين، وقاهم الله معرّات السنين، وكرّم وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه في يوم العرض والدين.

وبرز إلينا الحسن بن يحيى بن حسّون، فتى الفتيان بالمغرب، وغاية السّرو، وآية المروعة، والمثل البعيد في الإيثار على الخصاصة، ومخجل الضيف وريحانة التلطف، فأربى الخُبْرُ على الخَيْرِ والحمد لله. وكان السفر عن تشييع تتعلق بالأهداب أظفاره، وفضل عمّ الخافقين اعتذاره وأوجب ذلك ما خاطبتهم به:

إحسانكم يا بني يحيى بن حسّون
قد جددت زينة الدنيا برامكة
أبناء يحيى وقتهم كلما ولدوا
بالأحسن الندب زاد الله بيتكم
ما زال يكلف بالعليا ويُمحصنها
ما زلت أسمع عنكم كل مكرمة
أثرت بكم كف أزمور دياركم
أبقاكم الله في سعد عقائله
وردني لبلادي شاكرًا لكم
أزرى على كل منثور وموزون
منكم مكارمها لم ترض بالدون
عناية الله من موسى وهارون
حسناً فأهلاً بطلق الوجه ميمون
هو ي يعود على الأموال بالهون
والآن كم بين معلوم ومظنون
فأيُّ ذرُّ بصون المجد مكنون
تبدي لكم غرر الأبيكار والعون
بأمر ربي بين الكاف والنون

إلى مدينة أنفا، واستدرك استدعائنا منهم إلى كل احتفاء واحتفال، أفاضل ذهبوا من البر كلّ مذهب كالقاضي بها الشيخ الفقيه الحاج البادي القشف والسداجة أبي بكر عثمان بن صالح المسراقي المراكشيّ النشأة، قرأ بمراكش على أبي الحسن المرسي وأبي عبد الله العبدري؛ وبجاجة، على أبي زكريا يحيى ابن سعيد، وأبي زيد بن عبد الله وأخيه أبي بكر. وبأغمات: على أبي العباس المعروف بأيزم. وحج سنة أربع وثلاثين وسبعمائة، وولي القضاء بقصر كتامة، وحصن القاهرة وأزمور وأنفا. وأقرأ بمدرسها كتاب أبي عمرو بن الحاجب. مولده في حدود عشرة وسبعمائة. والعدل السريّ أبي العباس أحمد بن شرف بن علي السّلي من أهل تامسنا، نبيه المسكن فعمّ الخوان، مُنَجَّب غلمان. والعدل الفاضل أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن موسى البرغواطي خير منقبض متحلّ بسكينة. والشيخ الخطيب الخيّر أبو الحسن علي بن أبي حدّوا الأصيل البيت النابه الأبوّة المحمول عليه في سبيل بغى زعموا. والنجباء السراة أولاد الفقيه القاضي